أشهر المفتين من صغار الصحابة والتابعين

• **من أهل المدينة:**

السيدة عائشة - رضى الله عنها -

عائشة - رضى الله عنها - هى بنت أبى بكر الصديق ﷺ وزوج رسول الله ﷺ وأحب نسائه إليه.

وقد أسلمت فى سن صغيرة هى وأختها أسماء بعد أن عرفت معنى الإسلام. فتزوجها رسول الله ﷺ فى العام العاشر من البعثة بعد وفاة السيدة خديجة - رضى الله عنها -.

وكانت - رضى الله عنها- صوامة، قوامة، زاهدة، كريمة، فكانت تصوم حتى تضعف، وتقوم حتى يطلع الفجر، وكانت تتصدق بالكثير من الدراهم حتى لاتجد ما تفطر عليه إلا خبز الشعير، فقد تصدقت يوما بغرارة من الدراهم وأفطرت فى ذلك اليوم على خبز الشعير، وقد بعث إليها معاوية مرة بمائة ألف درهم فما غابت الشمس وعندها منها شيء.

وكانت - رضى الله عنها- أفقه الناس وأعلمهم وأحسنهم رأياً، وكان أكابر الصحابة إذا أشكل عليهم أمر سألوها عنه فوجدوا عندها منه علما، وذلك لحياتها المباركة مع رسول الله ﷺ ، فلقد روت عنه الكثير الطيب، وروت أيضا عن أبيها وعن عمر وفاطمة - رضى الله عنهم جميعا- وروى عنها عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن. (طبقات ابن سعد والاستيعاب، الإصابة وتهذيب التهذيب. فى ترجمتها - رضى الله عنها-).

وروى عنها الكثير من التابعين كابن المسيب وعلقمة وعائشة بنت طلحة وعمرة بنت عبد الرحمن وحفصة بنت سيرين.

وقد روىّ عنها ألفان ومائتان وعشرة أحاديث ، اتفق الشيخان منها على مائة وأربع وسبعين، وانفرد البخارى بأربع وسبعين، وانفرد مسلم بثمان وخمسين.

وكانت تمتاز بمسائل النساء وأحكامها وما يفعله الرسول ﷺ فى بيته ، ولو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواجه ﷺ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة

أفضل، ولسعة علمها وقوة ذكائها انفردت عن الصحابة بكثير من المسائل الاجتهادية وتحرير الروايات، حتى إنها كثيراً ما خالفت كبار الصحابة فى الرأى والاجتهاد ، وقد قال عطاء بن أبى رباح: "كانت عائشة من أفقه الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة"، وقال عروة: "ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بشعر من عائشة".

وقد توفيت – رضى الله عنها – ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين، ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة – رضى الله عنهما وأرضاهما–.

* * *

عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما -

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى.

أسلم عبد الله مع أبيه عمر بن الخطاب ﷺ ، وهو غلام لم يبلغ الحلم .

وعلى الرغم من صغر سنه فقد وجد فى الدين الجديد نوراً يهدى .. وفى الرسول ﷺ مثالاً يقتدى به.

وقد هاجر إلى يثرب - المدينة المنورة- قبل والده ، وذلك عندما صدر أمر النبى الكريم بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة.

جمع عبد الله بن عمر فى شخصه جمال الخُلُق والخَلْق .

فقد كان كريم النفس، عفيف اللسان،طاهر القلب،باسط اليد بالصدقة والإحسان.

وهو إلى جانب ذلك كان مجاهداً مخلصاً لدين الله الحنيف يتمتع بقوة ورجولة جعلتا منه بطلاً مقداماً فى كل الحروب التى خاضها مجاهداً فى سبيل الله سبحانه وتعالى.

ولم يعرف التاريخ الإسلامى تابعاً مؤمناً كعبد الله بن عمر.

فهذا الفتى الأغر أحب الرسول حباً ملك عليه قلبه وعقله، فتأثر به حتى حفظ كل تصرفاته.

وعندما أصبح رجلاً .. ومضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. استمر يمارس العادات التى كان يقوم بها النبى ﷺ، وكأن ذاكرته خزان لكل الصور والمشاهد التى رآها من خلال مرافقة النبى المصطفى.. وعرف بين المسلمين بأنه من أكثر الناس اتباعاً لآثار الرسول ﷺ.

لقد كان ابن عمر تاجراً كبيراً أصاب من التجارة مالاً كثيراً. كما كان دخله من بيت المال كبيراً. ولكنه لم يحاول أن يجمع ثروة كبيرة تفتنه عن دينه أو يَبْذخ فى الأرض فينسى آخرته.

وحب الصدقة والإحسان للفقراء يتملك فى نفسه حتى قيل إنه كان يتصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألف درهم.

وقصص الإحسان حول عبد الله أكثر من أن تعد وتحصى لأنه وقف حياته عليه.

وعلى الرغم من كثرة مال ابن عمر فإن الدنيا لم تفتنه بزيفها ولا جذبته بزخرفها. بل عاش حياتَه يبذل ماله فى سبيل الله دون أن يفكرَ بنعيم العيش ورفاهية الحياة.

وكان الرسول الكريم يرى فيه رجل خير وتقى فعلمه كثيراً.. وحدثه كثيراً.. ونصحه كثير.

وفى ذلك يقول عبد الله: أخذ رسول الله ﷺ يوماً ببعض جسدى وقال :

– يا عبد الله كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو كأنك عابرِ سبيلٍ.. وعن نفسِك كن فى أهلِ القبور.

ثم قال لى : "يا عبد الله بن عمر فإنه ليس ثم دينار ولا درهم إنما هى حسنات وسيئات.. جزاء بجزاء وقصاص بقصاص. ولا تتبرأ من ولدك فى الدنيا فيتبرأ الله منك فى الآخرة. فيفضحك على رءوس الأشهاد".

"ومن جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة".

والتزم ابن عمر بنصيحة رسول الله ﷺ طيلة حياته فكان خير من حدث، وأحسن من أفتى.

وعاش عبد الله بن عمر حياته كلها زاهداً نعيمها لإيمانِه أن النعيم الحقيقى هو فى لقاء الله سبحانه وتعالى، بأعمال طاهرة ونفس طيبة.

ولم يزهد ابن عمر بمال الدنيا فقط. بل زهد بمناصبها ومراكزها وسلطتها.

وقال "مالك":

– بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفتى فى الإسلام ستين سنة، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض.

واعتزل ابن عمر كل تقاتل بين الإخوة. ومكث فى المدينة يفتى فى شئون الناس معتمداً على سعة علمه وصدق حديثه وعمق إيمانه.

وكان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقى لدينه فى الفتوى وكل ما تأخذ به نفسه.

روى ابن عمر الحديث عن رسول الله ﷺ فأكثر، وروى عن كبار الصحابة، وروى عنه كثير من التابعين وأكثرهم رواية عنه ابنه سالم ومولاه نافع.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان وكان العمر قد تقدم كثيراً بابن عمر، هاجم الحجاج بن يوسف الثقفي مكة ليقضي على نفوذ عبد الله بن الزبير الذى تصدى لعبد الملك ، ولم يقر له بالخلافة.

وفى موسم الحج أمر عبد الملك الحجاج بأن يحج مع عبد الله بن عمر وأن يقتدى به. فكان ابن عمر يتقدم الحجاج بالمواقف فى عرفة وغيرها.

وحقد عليه الحجاج من أجل ذلك.

وفى أحد الأيام بينما الحجاج يخطب،وهو فى أوج قوته وعظمته قال:

- إن ابن الزبير حرف كتاب الله.

انتفض ابن عمر فى مجلسه ، وهو الذى عرف بأمانته واستقامته ومناصرته للحق. ووقف وسط المسلمين فى وجه الحجاج يصرخ موجها كلامه إليه:

- كَذَبْتَ.. كَذَبْتَ.. كَذَبْتَ..

فبهت[1] الحجاج وأخذته المفاجأة، واعتراه الارتباك أمام صرخات ابن عمر، وعجز عن الرد عليه وهو الذى كانت ترهبه الناس. فحفظها فى نفسه وتوعد عبد الله شراً.

وبالفعل نفذ الحجاج تهديده، وأوعز إلى أحد غلمانه بالقضاء على ابن عمر. وحضر الرجل حربة مسمومة وسار خلف عبد الله حتى تمكن منه فوخزه برأس الحربة فى قدمه فأدماه.

ومرض عبد الله بن عمر بسبب ذلك وبدأ السم يسرى فى جسده.

واشتد المرض عليه ولم يستطع جسمه أن يصمد طويلاً أمام هذا المرض وقد جاوز السادسة والثمانين من العمر وتوفى سنة ٧٣ من الهجرة.

رحم الله عبد الله بن عمر فقد كان رقيق القلب يبكى إذا قرأ القرآن أو سمعه، وكان أيضاً شديد الحياء والذكاء.

* * *

(١) بهت : ذهل .

أبـوهريــرة - رضى الله عنه -

هو عبد شمس بن عامر بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث ابن مالك بن نضر بن الأزد، وهو دوسى من دوس فى اليمن. وقـد سمـاه النبى ﷺ عبد الرحمن. لأنه لم يكن يترك أسماء الجاهلية مستمرة فى الإسلام مثل: عبد شمس وعبد مناف وعبد العزى وغيرها.

وهو ذلكم الصحابى الجليل الذى أسلم عام خيبر وشهدها مع رسول الله ﷺ وبعد عودته من خيبر لزم صفة مسجده ﷺ مع صفوة الصحابة الفقراء الذين حبسوا أنفسهم على العبادة، وطلب العلم والجهاد فى سبيل الله ابتغاء فضله ورضوانه ونصرة لله ورسوله. وقد لزم النبى ﷺ ليتعلم منه. فكان فيما بعد من أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع.

سبب كنيته بأبى هريرة:

قد كنى بأبى هريرة لأن رسول الله ﷺ رآه يحمل هرة فى كمه ويسير بها فى النهار فقال له أنت أبو هريرة ، ولقد اشتهر ﷺ فى الإسلام بهذه الكنية ولم يعرف باسمه.

ويقال إن الرسول ﷺ دعا له بالحفظ ، فحفظ ما لا يحفظون، فقد قـال يومـا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنى أسمع منك حديثا كثيـرا أنسـاه، قـال: "أبسط رداءك فبسطته فغرف بيديه، ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعده"(١).

وتمتع أبو هريرة بعد ذلك بذاكرة نادرة بين الناس. فكان سريع الحفظ ، يختزن ما يسمع ثم يرويه بدقة متناهية دون إغفال أدنى الفواصل أو الكلمات.

ويعد أبو هريرة ﷺ من أكثر الصحابة رواية للحديث عن رسول الله ﷺ فلـه خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثا، فى البخارى منها أربعمائة وستة وأربعون، وقد أخذ عنه ما يزيد على ثمانمائة ما بين صحابى وتابعى وخاصـة سعيد بن المسيب صهره والأعرج مولاه.

وكان ﷺ أول من دون الحديث، فقد أملى صحيفته الصحيحة على تلميذه همام

---

(١) البخارى ج ١ ص ٢٤ مسلم ج ١٠ ص ٥١.

التابعى وفيها ما يقرب من مائة وأربعين حديثا.. وقد استعمله عمـر ﷺ علـى البحرين، ثم عزله، ثم أراده على العمل ثانية فأبى ليتفرغ للعبادة والتعليم.. ولقد أعزه الله بالإسلام وأغناه ، وكان صواما، قواما، شديد التواضع، وكان ناصـحا لأصحابه، وقد قال يوما: ألا أدلكم على غنيمة باردة قالوا ماذا يا أبا هريرة قال: "الصوم فى الشتاء. وذلك لقصر النهار وضعف الحرارة فيه"..وكان ﷺ صحابى كريم برىء كل البراءة من حقد الحاقدين الذى دفعهم إلى طعنه بما يعـد محمدة له ومكرمة.

رحم الله أبو هريرة الذى توفى عن عمر ثمانية وسبعين عاما فى العام التاسع والخمسين للهجرة فى بيته بالعقيق وحمل إلى المدينة المنورة ودفـن فى البقيع، وصلى عليه الوليـد بن عتبة بن أبى سفيان، وكان أميراً على المدينـة لعمـه معاوية بن أبى سفيان.

رحمه الله فقد كان أبو هريرة شخصية فذة من شخصيات التاريخ الإسلامى، فقد امتاز بذكاء نادر، وذاكرة عجيبة، وثقة بالنفس، بجانب خفة الروح ونعومة المعشر ولطف المحادثة، فكان دوما يحيط مجلسه جوا من الأنـس واللطف وراحة النفس.

كما أنه امتاز بشجاعة أدبية كبيرة وجرأة قوية فى قول الحق والصواب، فقد عاش حياته تقيا مؤمنا.. يكثر الحديث ويكثر العبادة ويكثر قيام الليل. رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته.

• وكان هؤلاء الثلاثة عائشة رضى الله عنها، وابن عمر ﷺ، وأبو هريرة ﷺ هم أكثر الصحابة من أهل المدينة حديثا وفتوى وعنهم أخذ كبار التابعين الذين سنذكر أشهرهم.

* * *

سعيد بن المسيب المخزومى - رضى الله عنه -

ولد سعيد بن المسيب لسنتين مضتا من خلافة عمر وسمع من كبار الصحابة، وكان واسع العلم وافر الحرمة متين الديانة قوالا بالحق فقيه النفس.

كان سعيد من أشد ما استأثر باهتمامه فى المدينة المنورة حلقات العلم التى كانت تعمر المسجد النبوى الشريف، ويتألق فيها العلماء الأفذاذ من كبار التابعين.

وكان لسعيد بن المسيب حلقة بينهم، وكان لا يقبل جوائز السلطان حتى إنه يقال أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خطب ابنته لابنه الوليد فرفض وأبى أن يزوجها منه خوفا من أن تفتنها الدنيا وزخرفها عن دينها، ثم زوجها لأبى وداعة وقد كان فتى فقيراً ولكنه ورع وذو دين وخلق.

وكان سعيد صواما، قواما، حج نحو أربعين حجة وما فاتته التكبيرة الأولى فى مسجد الرسول طوال حياته.

وقد تزوج ابنة أبى هريرة وكان فى وسعه أن يتزوج بمن يشاء من نساء قريش فآثر ابنته على سائر النساء.. وذلك لمنزلته من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.. وسعة روايته لحديثه.. وشدة رغبته فى الأخذ عنه.

ولقد نذر نفسه للعلم منذ نعومة أظفاره.. فدخل على أزواج النبى ﷺ ، وتأثر بهن.. وتتلمذ على يدى زيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر.. وسمع من عثمان، وعلى، وصهيب، وغيرهم من صحابة النبى الكريم ﷺ.

وتخلق بأخلاقهم.. وتحلى بشمائلهم.. ولقد كانت له كلمة يرددها على الدوام حتى غدت وكأنها شعار له، وهى قوله:

ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله.. ولا أهانت نفسها بمثل معصيته.

رحم الله العالم الفقيه سعيد بن المسيب الذى توفى سنة ٩٤هـ كما قيل.. فقد قال عنه ابن عمر: سعيد بن المسيب أحد المفتين، وقال قتادة: ما رأيت أحد أعلم من سعيد بن المسيب، وقال على بن المدينى: لا أعلم فى التابعين أوسع علماً من سعيد هو عندى أجل التابعين وكان لا يقبل جوائز السلطان. وجل روايته المسند عن أبى هريرة. وكان الحسن البصرى إذا أشكل عليه شىء كتب إلى سعيد ابن المسيب يسأله.

عـروة بن الزبيـر - رضى الله عنه -

ولد عروة بن الزبير لسنة واحدة بقيت من خلافة الفاروق رضوان الله عليـه فى بيت من أعز بيوت المسلمين شأناً، وأرفعها مقاماً.

فأبوه هو الزبير بن العوام من صحابة رسول الله ﷺ ، وأول من سل سيفاً فى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه، هى أسماء بنت أبى بكر الملقبة بذات النطاقين.

وجده لأمه، هو أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وصاحبه فى الغار.

وجدته لأبيه، هى صفية بنت عبد المطلب[1] عمة رسول الله ﷺ.

وخالته، هى أم المؤمنين عائشة عليها رضوان الله.. فقد نزل إلى قبرها حين دفنت بنفسه، وسوى عليها لحدها بيديه.

وأخوه عبد الله بن الزبير أول مولود رزق به المسلمون فى الهجرة.

أليس بعد هذا الحسب حسباً..غير شرف الإيمان وعزة الإسلام؟

عكف عروة على طلب العلم وانقطع له، واغتنم البقية الباقية من صحابة رسول الله ﷺ... فأخذ يؤم[2] بيوتهم، ويصلى خلفهم، ويتتبع مجالسهم، حتى روى عن على بن أبى طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وزيد بن ثابت، وأبى أيوب الأنصارى.. وأسامة بن زيد، وسعيد بن زيد، وأبى هريرة، وعبد الله بن عباس، والنعمان ابن بشير.

وأخذ كثيراً عن خالته عائشة أم المؤمنين، حتى غدا أحد فقهاء المدينة السبعة الذين يفزع إليهم المسلمون فى دينهم، ويستعين بهم الولاة الصالحون على ما استرعاهم الله جل وعز من أمر العباد والبلاد.

وقد جمع عروة بن الزبير العلم إلى العمل، فقد كان صواماً قواماً ، رطب اللسان دائماً بذكر الله تعالى.

---

(١) صفية بنت عبد المطلب: انظرها فى كتاب "صور من حياة الصحابيات" د. عبد الرحمن رأفت الباشا.
(٢) يؤم بيوتهم: يأتى بيوتهم.

ولقد كان عروة بن الزبير يجد فى الصلاة راحة نفسه، وقرة عينـه، وجنتـه على الأرض، فيحسنها كل الإحسان، ويتقن شعائرها أتم الإتقـان، ويطيلهـا غاية الطول.

وكان عروة بن الزبير للمسلمين منارة هدى، ودليل فلاح، وداعيـة خيـر طوال حياته.

ولقد اهتم أكثر ما اهتم بتربية أولاده خاصة، وسائر أبناء المسلمين عامة، فلم يترك فرصة لتوجيههم إلا اغتنمها، ولم يدع فرصة لنصحهم إلا أفاد منها.

من ذلك أنه دأب على حض بنيه على طلب العلم، إذ كان يقول لهم:

يا بنى تعلموا العلم، وابذلوا له حقه.. فإنكم إن تكونوا صغار قوم، فعسـى أن يجعلكم الله بالعلم كبراءهم.

ثم يقول: واسوأتاه، هل فى الدنيا شيء أقبح من شيخ جاهل؟!!

وكان يدعوهم إلى عد الصدقة هدية تهدى لله جل وعز، فيقول:

يا بنى، لا يهدين أحدكم إلى ربه ما يستحى أن يهديه إلى عزيز قومه... فإن الله تعالى أعز الأعزاء، وأكرم الكرماء، وأحق من يختار له.

وكان يبصرهم بالناس، وينفذ بهم إلى جوهرهم فيقول:

يا بنى إذا رأيتم من رجل فعلة خير رائعة فأملوا به خيراً، ولـو كان فى نظر الناس رجل سوء ، فإن لها عنده أخوات...

وإذا رأيتم من رجل فعلة شر فظيعة فاحذروه، وإن كان فى نظر الناس رجل خير، فإن لها عنده أخوات أيضاً.

واعلموا أن الحسنة تدل على أخواتها.. وأن السيئة تدل على أخواتها أيضا.

وكان يوصيهم بلين الجانب، وطيب الكلام، وبشر الوجه فيقول:

يا بنى، مكتوب فى الحكمة، "لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك طلقاً، تكن أحب إلى الناس ممن يبذل لهم العطاء".

وبعد... فقد عاش عروة بن الزبير واحداً وسبعين عاماً مترعة بالخير، حافلة بالبر، مكللة بالتقى.

فلما جاءه الأجل المحتوم أدركه وهو صائم..

ولقد ألح عليه أهله أن يفطر فأبى..

لقد أبى، لأنه كان يرجو أن يكون فطره على شربة من نهر الكوثر[١].. فـى قوارير من فضة..

بأيدى الحور العين..

* * *

(١) نهر الكوثر: نهر فى الجنة.

زيـن العابديـــن - رضى الله عنه -

زين العابدين هو على بن الحسيـــن بن على بـــن أبـــى طالـــب رضـــى الله عنهم جميعا .

وقد لقب بـــ " زين العابدين" لورعه وتقاه واتقانه لشعائره.. وهذا اللقب دعاه به الناس حتى نسى قومه اسمه أو كادوا وآثروا لقبه هذا عليه.

وما كاد على بن الحسين يبلغ سن التمييز، حتى أقبل على طلب العلم بشـــغف وشوق.. وكانت مدرسته الأولى بيته، وما أكرمه من بيت.

وكان معلمه الأول والده الحسيـــن بـــن على، ومـــا أعظمه مـــن معلـــم.. أما مدرسته الثانية، فمسجد الرسول الأعظم ﷺ .

وكان المسجد النبوى الشريف – يومئذ– يموج بالبقية الباقيـــة مـــن صـــحابة الرسول الكريم، ويزخر بالطبقة الأولى من كبار التابعين.

وكان هؤلاء وهؤلاء، يفتحون قلوبهم لهذه الزهور المزدهرة من أبناء الصحابة الكرام، فيقرئونهم كتاب الله عز وجل.. ويفقهونهم فيه.

ويروون لهم حديث رسول الله ﷺ.. ويقفونهم على مراميه.. ويقصون علـــيهم سيرة الرسول الأعظم ﷺ ومغازيه.. وينشدونهم شـــعر العـــرب، ويبصـــرونهم بمواطن جماله.. ويملأون قلوبهم الغضة بحب الله عز وجل، وخشيته، وتقـــواه.. فإذا هم علماء عاملون، وهداة مهديون.

لكن على بن الحسين لم يتعلق قلبه بشىء كما تعلق بكتاب الله عز وجل.. ولم تهتز مشاعره لأمر كما كانت تهتز لوعده ووعيده .. فإذا قرأ آيـــة فيهـــا ذكـــر الجنة، طار فؤاده شوقاً إليها.. وإذا سمع آية فيها ذكر النار، زفر زفرة كأن لهيب جهنم فى أحشائه.

وما أن اكتمل على بن الحسين شباباً وعلماً، حتى ظفر المجتمع المدنى الأمثل بفتى من أعمق فتيان بنى "هاشم" عبادة وتقى.. وأعظمهم فضلاً وخلقاً.. وأكثرهم إحساناً وبراً.. وأوسعهم معرفة وعلماً.

فلقد بلغ من عبادته وتقواه، أنه كانت تأخذه رعدة بـــين وضـــوئه وصـــلاته، فينتفض جسده نفضاً.

فلما كلم فى ذلك قال: ويحكم!!.. كأنكم لا تدرون إلى من أقوم.. ولاتعلمون من أريد أن أناجى.

وقد بلغ من إطالته لسجوده، واستغراقه فيه أن ناداه أهل المدينة بالسجاد.. وقد بلغ من صفاء نفسه ونقاء قلبه أن نعتوه بالزكى.

وكان زين العابدين رضوان الله عليه يوقن أن أساس العبادة الدعاء.. وكان يطيب له الدعاء أكثر ما يطيب وهو متعلق بأستار الكعبة.

فلكم التزم البيت العتيق، وجعل يقول:

رب لقد أذقتنى من رحمتك ما أذقتنى.. وأوليتنى من إنعامك ما أوليتنى.. فصرت أدعوك آمناً من غير وجل.. وأسألك مستأنساً من غير خوف.. رب إنى أتوسل إليك توسل من اشتدت فاقته إلى رحمتك.. وضعفت قوته عن أداء حقوقك.. فاقبل منى دعاء الغريق الغريب الذى لا يجد لإنقاذه إلا أنت يا أكرم الأكرمين.

ولقد أفاضت التقوى على زين العابدين ما شاء الله أن تفيض من شمائل الفضل، والنبل، والحلم.. حتى ازدانت كتب السير بروائع أخباره، وزهت صفحاتها بنبيل مواقفه.

ولقد وسع الله عز وجل على زين العابدين، وأفاض عليه الرزق فيضاً... فكانت له تجارة رابحة... وزراعة نامية... وكان ينهض بهما غلمانه.

وكانت زراعته وتجارته تدران عليه الخير الوفير، والمال الكثير.. لكن زين العابدين لم يغره الغنى.. ولم تبطره النعمة.. وإنما جعل مال الدنيا مطية للفوز فى الآخرة، وكان أكثر ما حبب إليه من أعمال البر صدقة السر.

فكان إذا جن الليل يحمل أكياس الدقيق على ظهره الناحل، ويخرج بها فى عتمات الليل والناس نيام.. وكان يجوب بها أحياء المدينة ليتصدق على ذوى الحاجات ممن لا يسألون الناس إلحافاً.

فكانت جماعات كثيرة من أهل المدينة تعيش وهى لا تدرى من أين يأتيها رزقها رغداً.

فلما مات على بن الحسين فقد هؤلاء ما كان يأتيهم من رزق،فعرفوا مصدره.

ولما وضع زين العابدين على المغتسل، نظر غاسلوه.. فوجدوا فى ظهره آثار سواد، فقالوا: ما هذا؟.

فقيل لهم: إنه من آثار حمل أكياس الدقيق إلى مائة بيت فى المدينة فقدت عائلها بفقده.

وكان على بن الحسين ﷺ يعتق العبد إذا أحسن، مكافأة له على إحسانه.. وكان يعتق العبد إذا أساء وتاب، جزاء له على توبته.. حتى روى الراوون أنه أعتق ألف عبد.. وأنه لم يستخدم أحداً من غلمانه وإمائه أكثر من عام واحد.

وكان عتقه لعبيده يقع أكثر ما يقع ليلة عيد الفطر... حيث كان يحرر فى تلك الليلة المباركة ما يقدره الله على تحريره من رقاب الأرقاء.

ويسألهم أن يتوجهوا إلى القبلة، وأن يقولوا: اللهم اغفر لعلى بن الحسين.. ثم يزودهم بما يجعل عيدهم عيدين، وفرحتهم فرحتين.

ولقد حل على بن الحسين من قلوب الناس منزلة لم يزد عليها عصره .. فلقد أحبه الناس أصدق ما يكون الحب.. وأجلوه أعظم ما يكون الإجلال .

رضى الله عن سبط رسول الله وأرضاه.. فقد كان صورة فذة للذى يخشى الله فى السر والعلن.. ويضنى النفس خوفاً من عقاب الله.. وطمعاً فى ثوابه.

* * *

سالم بن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهم -

حفيد الفاروق

ولد سالم بن عبد الله فى رحاب المدينة المنورة مثوى رسول الله ﷺ ودار هجرته.

وفى أجوائها العبقة نشأ وشب.. فى كنف أبيه العباد الزهاد عبد الله بن عمر تربى... وبأخلاقه العمرية تخلق.

وقد أبصر أبوه فى سلوكه من شمائل الإسلام، وأخلاق القرآن ما فاق إخوته... فأحبه حباً ملك عليه شغاف قلبه، حتى لامه اللائمون.

وأقبل عليه يبثه ما وعاه صدره من حديث رسول الله ﷺ... ويفقهه فى دين الله... ويمليه من كتاب الله... ثم دفع به إلى الحرم الشريف.

وكان مسجد رسول الله ﷺ مازال معموراً بطائفة كبيرة من جلة الصحابة.

فحيثما ألم الفتى بركن من أركانه، ألفى أمامه نجماً فيه ألق من سنا النبوة، وعبق من طيوب الرسالة الغراء.

وأينما رمى بطرفه أو ألقى بسمعه، أبصر خيراً وسمع براً.

وبذلك أتيح له أن يأخذ عن طائفة من جلة الصحابة على رأسهم أبو أيوب الأنصارى، وأبو هريرة، وأبو رافع، وأبو لبابة، وزيد بن الخطاب.

وذلك بالإضافة إلى والده عبد الله بن عمر، فما لبث أن غدا علماً من أعلام المسلمين... وسيداً جليلاً من سادة التابعين... وأحد فقهاء المدينة الذين يفزع إليهم المسلمون فى دينهم... ويأخذون عنهم شريعة ربهم ... ويرجعون إليهم فى معضلات الدين والدنيا.

وكان الولاة يأمرون قضاتهم إذا عرضت عليهم القضايا أن يدفعوا بها إليهم.

فإذا جاءتهم المسألة اجتمعوا جميعاً ونظروا فيها، ثم لا يقضى القضاة إلا برأيهم.

وكان أسعد الولاة حظاً، وأطيبهم أحدوثة، وأقربهم إلى قلوب الناس، وأوثقهم عند الخلفاء، من يأخذ بمشورة سالم بن عبد الله ويلتزم بتوجيهه.

أما الذين يخالفون أمره، فقد كانت المدينة تضيق بهم، ولا تتحمل ولايتهم.

ولقد جرب خلفاء بنى "أمية" أن يغدقوا على سالم الخير كما أغدقوه على غيره.. فوجدوه زاهداً بما فى أيديهم.. مستصغراً للدنيا وما فيها.

وكما أشبه سالم جده الفاروق فى الإعراض عن الدنيا والزهادة بعرضها الفانى، فقد أشبهه أيضاً فى الجهر بكلمة الحق مهما كانت ثقيلة الوطأة شديدة التبعات.

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز كتب إلى سالم بن عبد الله يقول:

أما بعد... فإن الله عز وجل ابتلانى بما ابتلانى به من ولاية أمر المسلمين عن غير مشورة منى ولا طلب.

فأسأل الله الذى ابتلانى بهذا الأمر أن يعيننى عليه.

فإذا جاءك كتابى هذا،فابعث لى بكتب عمر بن الخطاب، وأقضيته، وسيرته... فإنى عازم على أن أتبع سيرته... وأسير على نهجه إن أعاننى الله على ذلك... والسلام.

فكتب إليه سالم يقول:

أما بعد... فقد جاءنى كتابك الذى تذكر فيه أن الله عز وجل ابتلاك بإمرة المسلمين من غير طلب منك ولا مشورة... وأنك تريد أن تسير بسيرة عمر... فلا يفتك أنك فى زمان غير زمان عمر... وأنه ليس فى رجالك من يماثل رجال عمر.

ولكن اعلم أنك إن نويت الحق وأردته، أعانك الله عليه، وأتاح لك عمالاً يقومون لك به.. وأتاك بهم من حيث لا تحتسب.. فإن عون الله للعبد على قدر نيته.. فمن تمت نيته فى الخير تم عون الله له، ومن قصرت نيته نقص من عون الله له بقدر نقص نيته.

وإذا نازعتك نفسك إلى شىء مما لا يرضى الله عز وجل، فاذكر من كان قبلك من ذوى السلطان الذين سبقوك إلى الرحيل عن هذه الدنيا... وسل نفسك كيف تفقأت[١] عيونهم التى كانوا يشهدون بها اللذات، وكيف تمزقت بطونهم التى كانوا لا يشبعون بها من الشهوات.

---

(١) تفقأت: قلعت.

وكيف صاروا جيفاً لو تركت إلى جانب مساكننا ولم توارها آكام[١] الأرض، لضججنا من ريحها.. ولمسنا الضر من نتنها. والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد... فقد عاش سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عمراً مديداً حافلاً بالتقى... عامراً بالهدى... أعرض فيه عن زينة الدنيا وزخرفها... وأقبل خلاله على ما يرضى الله... فأكل من الطعام ما غلظ... ولبس من الثياب ما خشن... وغزا "الروم" مع جيوش المسلمين جندياً... وقضى حوائج المسلمين، وحنا[٢] عليهم حنو الأمهات... فلما أتاه اليقين[٣] سنة ست ومائة للهجرة، ارتجت المدينة حزناً عليه.

رحم الله سالم بن عبد الله فقد كان نعم الفقيه والمحدث، وقد قال عنه الإمام مالك:" لم يكن أحد في زمان سالم بن عبد الله أشبه منه بمن مضى من الصالحين في الزهد، والفضل، والعيش".

* * *

(١) الآكام: المرتفعات.
(٢) حنا عليهم: مال إليهم وعطف عليهم.
(٣) اليقين: الموت.

القاسم بن محمد بن أبى بكر - رضى الله عنهم -

هو القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ ورفيق حياته.. ولد القاسم بن محمد فى أواخر خلافة عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه-.

لكن الطفل الصغير ما كاد يمشى بين أقرانه ، حتى هبت فى ديار المسلمين ريح الفتنة العاصفة.. فاستشهد الخليفة العباد الزهاد ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ وهو منحن بصلبه على أجزاء القرآن.

ونشب الخلاف الكبير بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان أمير بلاد الشام.. وفى سلسلة مفزعة مذهلة من الأحداث المتلاحقة.. وجد الطفل الصغير نفسه يحمل مع أخته من المدينة إلى "مصر".. فقد كان عليهما أن يلحقا بأبيهما، بعد أن غدا والياً عليها من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب..

ثم حملا من مصر إلى المدينة مع عمهما عبد الرحمن بن أبى بكر بعد قتل أبيهما وعاشا لفترة طويلة فى كنف عمتهما عائشة رضى الله عنها ثم تولى أمرهما بعد ذلك عمهما.

ولما شب الفتى "البكرى" كان قد حفظ كتاب الله عز وجل.. وأخذ عن عمته عائشة من حديث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يأخذ.

ثم أقبل على الحرم النبوى الشريف، وانقطع إلى حلقات العلم التى كانت تنتشر فى كل ركن من أركانه.

وروى عن كثير من الصحابة فروى عن أبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن الزبير.. وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن خباب، ورافع بن خديج، وأسلم مولى عمر بن الخطاب، وغيرهم الكثيرون.. حتى غدا إماماً مجتهداً.. وأصبح من أعلم أهل زمانه بالسنة.

ولما اكتملت للشاب البكرى أدوات المعرفة، أقبل الناس عليه يلتمسون عنده العلم بشغف.. وأقبل هو عليهم يبذله لهم بسخاء.

فكان يأتى مسجد رسول الله صلوات الله عليه وسلامه غداة كل يوم فى موعد

لايخلفه.. فيصلى ركعتين يحيى بهما المسجد.. ثم يأخذ مكانه أمام خوخة[١] عمر فى الروضة الغراء بين قبر النبى صلوات الله وسلامه عليه وبين منبره.

فيجتمع عليه طلاب العلم من كل مكان.. وينهلون من موارده العذبة المصفاة ما يملأ النفوس العطشى ريا.

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح القاسم بن محمد وابن خالته سالم بن عبد الله بن عمر إمامى المدينة الموثوقين.. وسيديها المطاعين، ورجليها النافذين[٢].. على الرغم من أنه لم تكن فى أيديهما ولاية ولا سلطان.

فقد سودهما الناس لما كانا يتحليان به من التقى والورع.. وما يحملانه فى صدريهما من العلم والفقه.. وما يزدانان به من الزهادة بما فى أيدى الناس، والرغبة بما عند الله عز وجل.

وقد بلغ من مكانتهما فى النفوس أن خلفاء بنى "أمية" وولاتهم كانوا لايقطعون أمراً ذا بال فى شأن من شئون المدينة إلا برأييهما.

ولقد كان القاسم بن محمد أشد الناس تشبها بجده الصديق رضوان الله عليه، حتى قال الناس:

لم يلد أبو بكر ولداً أشبه به من هذا الفتى.

فلقد أشبهه فى كرم شمائله، ونبل خصائله.. وصلابة إيمانه، وشدة ورعه.. وسماحة نفسه، وسخاء يده.. وقد أثر عنه كثير من الأقوال والأفعال تشهد له بهذا.

وقد عمر القاسم بن محمد حتى زاد على الثانية والسبعين.. لكنه كف بصره وهو شيخ كبير.

وفى آخر سنة من حياته، قصد مكة يريد الحج... وفيما هو فى بعض طريقه أتاه اليقين[٣].. فلما أحس بالأجل التفت إلى ابنه وقال:

---

(١) الخوخة: نافذة صغيرة فى البيت تؤدى إليه الضوء، وهى الباب الصغير فى الباب الكبير.
(٢) النافذين: المسموعى الكلمة.
(٣) اليقين: الانتقال إلى الآخرة.

إذا أنا مت، فكفنى بثيابى التى كنت أصلى فيها:

قميصى... وإزارى... وردائى... فذلك كان كفن جدك أبى بكر.

ثم سو على لحدى. والحق بأهلك.

وإياكم أن تقفوا على قبرى، وتقولوا: كان... وكان... فما كنت شيئاً.

رحم الله القاسم بن محمد هذا العالم الفذ المتواضع الذى لم تغره الدنيا وتركها وهو راض رافضا أن يشيد أحد بمآثره.

وعلى الرغم من ذلك فقد قال عنه أبو الزناد: ما رأيت فقيها أعلم من القاسم وما رأيت أحداً أعلم بالسنة منه، وقال ابن سعيد: كان إماما فقيها ثقة رفيعا ورعاً كثير الحديث.

* * *